تجليات الحجاج في الخطاب النبوي (خطبة الوداع نموذجا)

د. وفاء أحمد جابر

أستاذ البلاغة والنقد المساعد- كلية العلوم والآداب بالرس- جامعة القصيم.

ملخص:

ما زال التراث النبوي غنيا بالمضامين الجمالية والبلاغية، ومن ذلك الحجاج كنمط من أنماط الخطاب، بغرض الإقناع، والتأثير على المتلقي، فتناول البحث آليات الخطاب الحجاجي.. من وسائل حجاجية لغوية من أمر ونهي، واستفهام، وآليات بيانية تشبيهية، وبديعية من تكرار ومقابلة، وثنائيات ضدية، وتناول العدول التركيبي من تقديم وتأخير، وحذف.

وتم اختيار خطبة حجة الوداع نموذجا لبيان ذلك على وجه الخصوص؛ لما لها من حظ بلاغي وافر؛ إذ حظت بأسلوب لغوي فريدٍ، ورائع، حاول فيه النبي معالجة أهم القضايا التي تهم الإنسانية، كذلك فقد شغلت هذه الخطبة الناس، ودرست من جوانب مختلفة؛ لذا فإن البحث حاول دراستها من زاوية مختلفة جديدة، وهي دراسة الحجاج فيها، حيث إن معالم الحجاج تبدو جلية فيها.

الكلمات المفتاحية:

البلاغية النبوية- الحجاج- الخطاب- الأسلوبية- الحقوق العامة.

Abstract:

The Prophet's heritage is rich in aesthetic and rhetorical contents, including pilgrims as a pattern of discourse, for the purpose of persuasion, and influence on the recipient. The research deals with the mechanisms of discourse of Hajj, from linguistic means of Hajj, banning, questioning, analogous, Antibodies, antibodies, antibodies and antibodies.

The speech of the Farewell Pilgrimage was chosen as an example of this in particular because of its rich rhetorical sense. It enjoyed a unique and wonderful linguistic style in which the Prophet attempted to address the most important issues of concern to humanity. The sermon also engaged people and studied various aspects. He tried to study it from a different angle, a new study of pilgrims, where the features of the pilgrims seem obvious.

key words:

The rhetorical prophetic-pilgrims-discourse-stylistic-general rights.

مقدمـة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث؛ رحمة للعالمين، النبي الأمي الذي علم البلغاء كيف يتحدثون؛ فأفصح وأجاد، اللهم، صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيحاول هذا البحث تناول آلية، من آليات البيان، تتعلق (بالحِجَاج) في خطبة حجة الوداع، وقد اتكأ الرسول (ρ) على الخطاب الحجاجي في أسلوبه؛ للتأثير على المخاطب واستمالة النفوس والعقول إليه؛ فاتخذ من أساليب الحجاج، والاستدلال، والجدال، والإقناع ما هو جدير برسالته؛ فجاء أسلوبه مقنعا دافعاً إلي التفكير والتأمل؛ لذلك جاء الخطاب الحجاجي النبوي تنويراً للعقول وهدماً لكل ما يحجب الحقيقة، وإتاحة للعقول أن تسمو بالأفكار؛ لإدراك الرسالة النبوية النبيلة.

وقد اهتمت الدراسات اللغوية، والبلاغية منذ القدم بأغراض اللغة، فكل مرسل له هدف ومقصد معين من خطابه، ومن بين تلك الأهداف التي يسعى المرسل لتحقيقها الإقناع، وكي يتحقق الإقناع والتأثير على المتلقي، ويجعله يذعن لرأي المرسل ويقبل به، فلا بد للمرسل من تقديم حججا لذلك، لكي يكون خطابه مؤثرا على المتلقي، وهذا ما يعرف بالحِجَاج.

وأشار كذلك إلى هذا الأمر ابن جني عندما قال: "اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" [1] ، وهذه الأصوات تنتظم في كلمات، والكلمات بدورها تنتظم في جمل وعبارات، وجميعها يؤدي في النهاية إلى معان، ومضامين، يتواصل بها الناس، هذا التواصل يرمي في أغلبه إلى التأثير والإقناع؛ فلا يكاد يخلو خطاب بين طرفين أو مجموعة من الناس من هدف يسعى إليه المرسِل أو المتكلم، ومن هنا أصبح الحجاج بما يملكه من أدوات معبرا عن معظم أهداف الكلام؛ وذلك لأن المرء يستخدمه للدفاع عن قضية أو فكرة معينة بقصد تغيير وجهة نظر شخص أو مجموعة من الأشخاص تجاه تلك الفكرة أو القضية، ومن ثم أصبح معظم الكلام يحمل طابعا حجاجيا.

وقد اخترت النظرية الحجاجية خاصة؛ لأنها تمثل فاعلية لغوية تواصلية تسهم في خدمة وإثراء النصوص بأنواعها المختلفة، وتسعى إلى إقناع المتلقي بقبول الرأي الآخر(المرسل)، ولأنها لم تنل حظًّا كبيراً من الدرسات الثرية الجادة في البحوث العربية المعاصرة.

أما عن اختيار خطبة حجة الوداع على وجه الخصوص؛ فلأنها حظيت بأسلوب لغوي فريدٍ ورائع حاول فيه النبي ρ معالجة أهم القضايا التي تهم الإنسانية، كذلك فقد شغلت هذه الخطبة الناس، ودرست من جوانب مختلفة؛ لذا فإن البحث حاول دراستها من زاوية مختلفة جديدة، وهي دراسة الحجاج فيها، حيث إن معالم الحجاج تبدو جلية فيها.

وقد اعتمدت الدراسة علي المنهج الوصفي، وهو مناسب لهذا النوع من الدراسات لما يفيد من وصف الظواهر الحجاجية، وتجليتها، وتحليل الشواهد وفق آليات الحجاج.

---

[1] الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008م، 87/1.

وقد جاءت الدراسة في مقدمة، عرضت لأهمية الموضوع وأسباب اختياره، ومدخلٍ.. جاء للحديث عن مفهوم الحجاج قديما وحديثا، وثلاثة مباحث حيث جاء المبحث الأول بعنوان آليات الحجاج اللغوية، درس فيه الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية، ووسائل الحجاج اللغوية (الأمر والنهي والاستفهام)، والمبحث الثاني دُرس فيه آليات الحجاج البلاغية: البيانية (التشبيه) والبديعية (التكرار– المقابلة)، ثم جاء المبحث الثالث لدراسة العدول التركيبي وأثره في الحجاج، عولج فيه التقديم والتأخير، والحذف.

ثم أُرْدِف البحث بخاتمة، عرضتْ النتائج التي توصل إليها، وأهم الملاحظات على هذه الدراسة.

واقتضت هذه الدراسة الرجوع إلى كثير من المصادر والمراجع، منها المصادر اللغوية والأدبية والبلاغية القديمة، علاوة على الاستعانة بالدراسات اللغوية، والأسلوبية الحديثة؛ لضرورة التواصل والتكامل العلمي بين القديم والحديث.

وأسأل الله التوفيق والسداد؛ فمنه أستمدُ العون والرشاد.

مدخل:

تناولت المعاجم العربية لفظة الحجاج ضمن ما عالجته من ألفاظ، فقد عَرَّفه ابن فارس (ت 395هـ) في معجمه (مقاييس اللغة) بقوله: "حَاجَجْتُ فلانا فحَجَجْتُهُ: أي غلبته بالحجة، وذلك الظفر يكون عند الخصومة، وسُمِّيت حُجَّة؛ لأنها تُحَجُ أي تقصد، أو بها يقصد الحق المطلوب، والجمع حُجَجٌ، والمصدر حِجَاجٌ"[2] . وعَرَّف الجرجاني (ت 711هـ) الحجة في معجمه (التعريفات) بأنها: ما دل به على صحة الدعوى، وقيل الحجة والدليل واحد [3] . وجاء في لسان العرب لمؤلفه ابن منظور (ت 711هـ): حَاجَّهُ مُحَاجَّةً وحِجَاجًا: نازعه الحُجَّةَ، وحَجَّهُ يَحُجُّهُ حَجًّا: غلبه على حُجَّتِهِ، والحُجَّةُ: ما دُوفع به الخَصْمُ، ورجل مِحْجَاجٌ أي جَدِلٌ، والتَّحَاجُّ: التَّخَاصُم، وقيل الحُجَّةُ: الدليل والبرهان [4] ، وجاء في المعجم الوسيط: تحاجوا: تجادلوا، واحتج عليه: أقام الحجة وعارضه مستنكرا فعله [5] .

في ضوء ما سبق يتضح لنا أن مادة (ح.ج.ج) تدور في المعاجم العربية حول معنى تحقيق الغلبة عند المخاصمة، أو المجادلة باستخدام البرهان، والدليل للوصول إلى النتيجة المطلوبة، ومن ثم كان الحجاج وسيلة للتغلب على الخصم وإقناعه بمقبولية الرأي الآخر.

وقد دار حول المعنى العربي نفسه لفظ (Argue) في اللغة الإنجليزية؛ حيث أشار إلى وجود خلاف أو جدال حول اختيار أو شيء ما، ثم إعطاء الأسباب التي تتوافق أو تتعارض مع هذا الشيء وطرحها للمناقشة من أجل تحقيق الإقناع بالحديث، كما عُرفت الحجة (Argument)[6] .

---

(2) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، تحقيق : د. عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1972م، مادة ح.ج.ج ، 2/ 29، 30.
(3) معجم التعريفات : الجرجاني، تحقيق : محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ص 73.
(4) ينظر : لسان العرب : ابن منظور،دارالمعارف،القاهرة، 1981م،مادة ح.ج.ج ، 2/ 799.
(5) المعجم الوسيط :مجمع اللغةالعربية،ط4، مكتبة الشروق الدولية، 1425هـ - 2004م،ص 156.
(6) ينظر:
.The Oxford Paper Back Dictionary, 2nd Edition,Oxford,1983,p30

وجاء كل ما سبق كاشفا عما جاء عن الحجاج لغة، وأما عن الحجاج كأمر اصطلح عليه، فهناك من يرى أن دراسة الحجاج لا تخرج عن مجال المنطق؛ وبذلك يكون مرادفا للبرهان والاستدلال، وهناك من وسع مجال الحجاج؛ ليشمل دراسة مجمل التقنيات الباعثة على إذعان السامع أو القارئ[7] ، ومن ثم تشعبت مجالات الحجاج، وتعددت مفاهيمه؛ مما يصعب حصرها أو الإحاطة بها، إلا أن جوهر الحجاج يكمن في كونه عملية اتصالية تعتمد الحجة المنطقية- بالأساس- وسيلة لإقناع الآخرين والتأثير فيهم[8] ، ومن أقرب المفاهيم إلى ذلك ما يلي:

أن عُرّفت الحجة بأنها استدلال يرمي إلى برهان قضية معينة أو دحضها، وعُرفت المحاجة بأنها طريقة عرض الحجج وترتيبها والإفادة منها، أو سرد حجج تنزع كلها إلى الخلاصة ذاتها.[9] وعرَّف (الحِجَاج) طه عبد الرحمن بأنه كل منطوق موجه إلى غيرك لإفهامه دعوى مخصوصة، يحق له الاعتراض عليها[10] .

وبالرغم من صحة التعريفات السابقة، فإنها لا تشمل سوى الجانب الشكلي للحجاج؛ أي: التلفظ ومن ثم الإفهام.. إنها لا تتجاوز ذلك إلى غاية الحجاج، وهي تحصيل الإقناع[11]؛ لذلك كان التعريف الذي قدمه (بيرلمانوتيتيكا) أكثر شمولا وقربا من جوهر الحجاج؛ إذ يجمع بين شكل الحجاج والغاية منه (الإقناع)؛ فهما يعرفان الحجاج بأنه دراسة التقنيات الخطابية، التي منشأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد من درجة ذلك التسليم[12] .

وأطلق كذلك (بيرلمان) مصطلح الخطابة الجديدة على دراسة، تتناول الحجاج بوصفه خطابة، تستهدف استمالة عقل المتلقي والتأثير في سلوكه؛ أي: الإقناع[13] . ومن ثم فإن حد الحجاج أنه فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي؛ لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، وهو أيضا جدلي؛ لأن هدفه إقناعي[14] .

وقد أجمل الدكتور محمد العبد تعريف الحجاج في ضوء تعريفات عدَّةٍ ذكرها في كتابه (النص والخطاب والاتصال)[15] بقوله: " الحجاج جنس خاص من الخطاب، يبنى على قضية فرضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا، قاصدا إلى إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية"[16] .

---

(7) ينظر: الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: عبد الله صولة، ط2، دار الفارابي، بيروت لبنان، 2007م، ص8.
(8) ينظر: البلاغة والاتصال : د. جميل عبد المجيد، دار غريب، القاهرة، 2000م، ص105.
(9) ينظر : موسوعة لالاند الفلسفية : أندريه لالا ند، تعريب : خليل أحمد خليل، ط2، منشورات عويدات، بيروت –لبنان، 2001م، ص 93، 94
(10) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي : د. طه عبد الرحمن، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998م، ص 226.
(11) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية : عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط1، دار الكتاب المتحدة، بيروت – لبنان، 2004م، ص456.
(12) ينظر : في نظرية الحجاج، دراسة وتطبيقات : عبد الله صولة، ط1، مسكيلياني للنشر، تونس، 2011م، ص 13.
(13) ينظر :البلاغة والاتصال، مرجع سابق، ص 105.
(14) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام : طه عبد الرحمن، ط2، المركز الثقافي العربي، 2000م ، ص 65.
(15) ينظر: النص والخطاب والاتصال : د. محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، 2014م، ص 146.
(16) المرجع السابق :ص147 .

أما عن باعث الحجاج وغاياته وأهميته، فإنه لا يمكن أن يحدث الحجاج إلا في وجود عدم اتفاق، يقتضي حله بالمواجهة الخطابية اللغوية، وليس بالقوة والعنف والمواجهات العسكرية[17] ، ومن ثم كان الاختلاف هو الباعث أو المحرك الأول للحجاج[18]؛ فنحن لا نجادل أونحاجج عن الأشياء اليقينية، وإنما يأتي الحجاج في ظل ظروف عدم اليقين[19] .

ولما كان المستقبل وجهة الحجاج، كانت الغاية منه أن يؤدي إلى حصول عمل ما أو الإعداد له، ويكون ذلك بالتأثير في الذهن بواسطة الوسائل الخطابية[20] ، علاوة على ذلك فيهدف الحجاج إلى تحقيق ثلاثة أهداف، هي: الحوار، والتأثير، والإقناع. وتكمن أهمية الحجاج في كونه وسيلة للمعرفة، كما يساعد على تحقيق أهداف مجتمع ديمقراطي من خلال زراعة مهارات التفكير النقدي[21] بخلاف غيره من وسائل الإقناع والمعرفة.

المبحث الأول: آليات الحجاج اللغوية في خطبة الوداع.

للغة وظيفة حجاجية، ومعروف أن التسلسلات الخطابية محددة ببنية الأقوال اللغوية وبالعناصر والمواد التي يتم تشغيلها، وقد اشتملت اللغات الطبيعية على مؤشرات لغوية خاصة بالحجاج، منها، الروابط والعوامل الحجاجية، والتي لا يمكن تعريفها إلا بالإحالة على قيمتها الحجاجية' ومن ثم كانت تلك الروابط والعوامل الحجاجية هي المؤشر اللغوي الأساس والبارز، وهي الدليل القاطع على أن الحجاج يكمن في بنية اللغة نفسها[22] .

وخلال السطور التالية ستعرض هذه الروابط والعوامل الحجاجية في خطبة الوداع، [23] فبدءًا تعرض الدراسة الروابط الحجاجية، فهناك أدوات تستخدم لربط الحجج بالنتائج، وتستخدم في العملية الحجاجية "والروابط الحجاجية هي جملة من الأدوات توفرها اللغة، ويستغلها الباثّ؛ ليربط بين مفاصل الكلام، ويصل بين أجزائه؛ فتتأسس عنها العلاقة الحجاجية المقصودة، التي يراها مؤسس الخطاب ضرورية " [24] ، ومن هذه الروابط، أدوات الربط "وهي الكلمات التي تستخدم في الربط بين الجمل كأدوات العطف، وأدوات الاستفهام، والشرط، وغيرها.

ومن بين تلك الأدوات حروف العطف، فتستخدم حروف العطف؛ في وصل الحجج ببعضها وتقوية كل حجة بالأخرى، ليصل المحاجج إلى النتيجة التي يريد تأكيدها، فهي تربط بين وحدتين دلايتين، أو أكثر في إطار استراتيجية حجاجية واحدة [25] ؛ لتؤكد على نتيجة واحدة، ومن ثم فهي من روابط التساوق الحجاجي [26] ، وإذا كانت العلاقة الترتيبية بين الحجج داخل السلم

---

(17) ينظر: تاريخ نظريات الحجاج : فيليبروتون،جيلجوتييه،ترجمة : د. محمدصالحناجيالغامدي،ط1، مركزالنشرالعلمي،جامعةالملك عبد العزيز،جدة، 1432هـ - 2011م،ص 13.

(18) البلاغة والاتصال،مرجع سابق ص106

(19) ينظر:
Zarefsky, David : Argumentation The Study Of Effective Reasoning, 2nd Edition, The Great Courses,USA,2005,p10.

(20) في نظرية الحجاج،دراسات وتطبيقات : عبدالله صولة، ط1، مكسيلياني للنشر،تونس، 2011م،ص19.

(21) Zarefsky, David : Argumentation The Study Of Effective Reasoning,p100.

(22) ينظر: اللغة والحجاج : أبو بكر العزاوي، ط1، الدار البيضاء، 1426هـ - 2006م . ص 55،26.

(23) "رواها ابن هشام عن إسحاق بدون إسناد وقد جاء إسندها في أحاديث متفرقة يطول الكلام في بيانها...، وقسم كبير منها في حديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه." نقلا عن فقه السيرة: محمد الغزالي، تخريج: الألباني، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط6، 1965م. ص487

(24) سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 318

(25) ينظر : اللغة والحجاج، مرجع سابق ص 29.

(26) ينظر : التحاجج، طبيعته ومجالاته ووظائفه، مرجع سابق ص66.

الحجاجي عمودية، فإن حروف العطف تقوم بالربط النسقي على المستوى الأفقي [27] ، ويمكن التمثيل لحروف العطف في خطبة الوداع كما يلي:

فالواو من حروف العطف" وهي في الأصل تفيد الربط؛ لأنها تشرك ما بعدها ما قبلها في المعنى، وتستخدم الواو لمطلق الجمع دون التقيد بالترتيب كما في حروف العطف " [28] ، وقد استخدم الرسول ρ الواو في الربط بين الحجج فمن ذلك قوله: "أوصيكُم عبادَ الله، بتقوى الله، وأحثّكم على طاعته" [29] .

والمتأمل هنا يجد أن الحجتين ربط بينهما بالرابط الحجاجي (الواو)، وجاءت كل منهما متسقة مع الأخرى، وتَؤُوْل كل منهما إلى هدف واحد، وهو الوصول إلى رضا الله Y؛ فالامتثال لأوامره والبعد عن معصيته تجعل الإنسان يصل إلى طاعته وينال رضاه؛ وبهذا يكون رابحا في الدنيا والآخرة، وتلك هي الحجة، التي يريد الرسول الكريم إيصالها لجميع البشر والهدف من رسالته، ويمكن التمثيل لهذا الأمر على النسق الأفقي التالي:

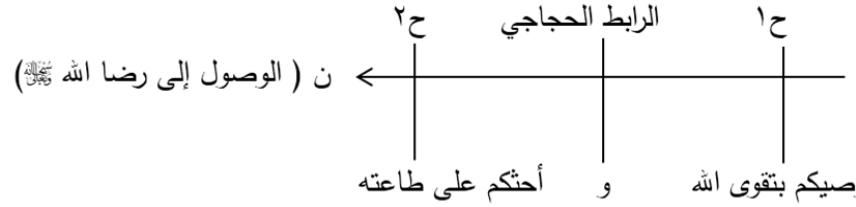

وقوله ρ: " ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوع، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع.. وأن كل ربا موضوع.. وإن ربا العباس بن عبد المطلب كله موضوع " [30] .

جاءت الحجج متسقة في الحديث السابق على كثرتها؛ وذلك لوقوع الرابط الحجاجي بينها، فجاءت جميعا تؤكد نتيجة واحدة، وهي أن كل ما كان من أمر الجاهلية من ثارات دموية ومعاملات ربوية باطل وساقط، وكل هذا نافذ على جميع الخلق وأولهم عليه وعلى أهله ليكون قدوة ومثلا أعلى للناس جميعا، ويمكن التمثيل لهذا الأمر على النسق الأفقي التالي:

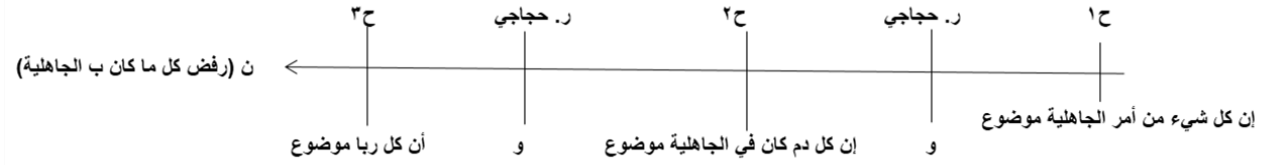

وقوله كذلك: "أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه. .."

---

(27) ينظر : استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق ص 473.
(28) ينظر: الحسن بن قاسم المرادي : الجنى الداني في حروف المعاني، ص 162.
(29) ينظر: السيرة النبوية: ابن هشام، تعليق: أ.د. عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1990م. ج4/ 248
(30) ينظر: البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م. ج31/2. وينظر: صحيح مسلم: دار الفكر، بيروت، ط1، 2003م. ، كتاب الحج، باب حجة النبي، حديث 1218 ، وينظر: حجة الوداع: الإمام ابن حزم الأندلسي، تحقيق: أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر، الرياض، ط1، 1998م. ص169

فكان للرابط الحجاجي (الواو) أثر في تقوية الحجة وتأكيد نتيجة واحدة وهي الاهتمام والإنصات لما يقولهρ من توجيهات وتوصيات، ويمكن التمثيل لهذا الأمر على النسق الأفقي التالي:

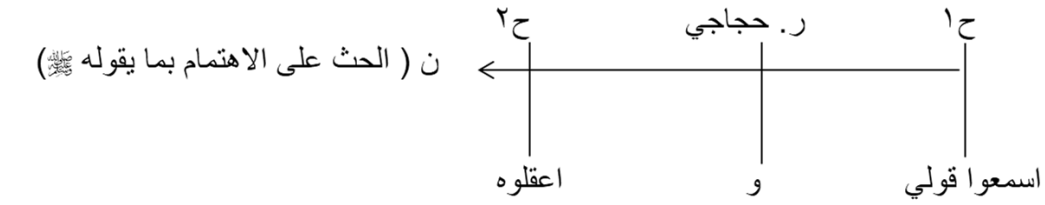

وقولـه أيضـاρ: " اللهـم، هـل بلغـت. .. فمـا أنـتم قـائلون، قـالوا نشـهد أنـك قـد بلغـت، وأديـت، ونصحت."

ولما ربط حرف العطف (الواو) بين الحجج هنا، جاءت الحجج متساوقة، تقوي بعضها بعضا وتخدم نتيجة واحدة، وهي أن الرسول ρ أدى الرسالة على أكمل وجه، ويمكن التمثيل لهذا الأمر على النسق الأفقي التالي:

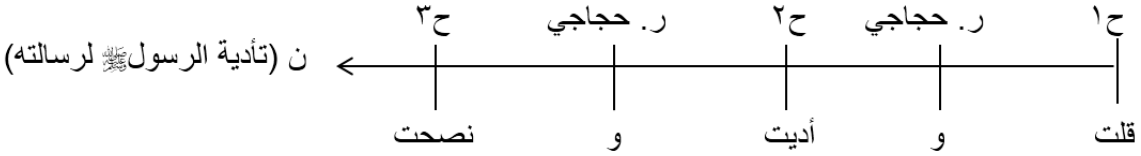

وأما عن الفاء كحرف من حروف الربط، فتفيد الفاء الترتيب والتعقيب، وكثيرا تقتضي التسبب (أي: الدلالة على السببية؛ بأن يكون المعطوف متسببا عن المعطوف عليه) إن كان المعطوف جملة [31] ، وفي هذه الحالة تعد الفاء من الروابط المدرجة للنتائج، نحو ما جاء في خطبة الوداع:

جاءت الفاء في قوله ρ:"أتدرون أي يوم هذا؟ وأي شهر هذا. .. فقالوا هذا بلد حرام. .. فقال ألا وإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" [32] ، وقد استخدمت الفاء هنا؛ لتدرج النتائج مرتين، وكان المعطوف متسببا عن المعطوف عليه، فقد جاءت إجابة الناس: هذا بلد حرام وشهر حرام، بعد أن وجه لهم الرسول ρ أسئلته، ثم بعد أن أجابوا جاءت النتيجة على هذا بتحريم الدماء، والأموال، والأعراض من الانتهاك مجتمعة دون انفصال، وعليهم أن يصونوا دائما حرمات الله سبحانه وتعالى.

أتدرون أي يوم هذا؟ ← فقالوا: هذا بلد حرام ← فقال ﷺ:

(الحجة) (الرابط) (النتيجة)(الحجة) (الرابط) (النتيجة)

---

(31) ينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : ابن هشام الأنصاري، ومعه كتاب عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك وهو الشرح الكبير من ثلاثة شروح : محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، 2009م، 308/3.

(32) ينظر: صحيح البخاري: دار ابن كثير، بيروت، ط1، 2002م. كتاب الحج، باب: الخطبة أيام منى، حديث:1739

وقوله أيضاρ: "ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحرمون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم". [33]

ويلاحظ استخدام الفاء هنا؛ لربط حجتين أولهما: أن الشيطان قد ارتضى من أهل مكة اقترافهم الآثام ولو كانت أسهلها، فكان ذلك سببا لنتيجة أخرى، جاءت بعد استخدام الرابط الحجاجي (الفاء)، وهي أن يحذروا الشيطان، ومكره ومحاولة مقاومته بكل مغرياته، ويمكن تمثيل ذلك على الشكل التالي: لكنه إن يطع فقد رضي فاحذروه
(الحجة) ← (الرابط) (النتيجة)(الحجة) ← (الرابط) (النتيجة)

وقولهρ: "فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع...، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، فاتقوا الله، فإنهن عندكم عوان. ..." [34]

ولما ربط الرابط الحجاجي (الفاء) بين الحجج في المثال السابق، جاءت الحجج جميعها مترابطة قوية بعضها ببعضٍ، تخدم نتيجة واحدة، وهي كيفية معاملة النساء، ومعرفة حقوقهن، وواجباتهن نحو أزواجهن، ودور الزوجين بما يتلاءم وطبيعة كل منهما، وتكون الحجة الأولى أن النساء لا يوطئن ولا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن ذلك فتكون النتيجة الهجر في المضاجع، وضربهن ضربا غير مبرح، ونأتي للحجة الثانية، وهي إن انتهين عن فعل ذلك فلهن أجرهن وكسوتهن ومعاملتهن معاملة حسنة، ويستخدم الرسول ρ الرابط الحجاجي (الفاء) استخداما رابعا، ويقدم السبب في معاملة النساء معاملة حسنة واتقاء الله فيهن؛ لأنهن كالأسيرات الضعيفات، وأن الله قد ملكها للرجل واستأمنه عليها؛ فليكن رفيقا بها ويراعِ أمانة الله، ويكن خير مستأمن، ويمكن تمثيل ذلك على الشكل التالي:

فإن فعلن ← فإن الله ← فإن انتهين ← فاتقوا الله ← فإنهن لكم عوان
ح ← ر- ن ← ح ← ر- ن-ح ← ر- ن

أما عن (لكن)، فهو حرف يفيد الاستدراك، وهو تعقيب الكلام برفع ما يتوهم ثبوته، أو إثبات ما يتوهم نفيه. وهذا يقتضي أن يكون المعنى بعدها مخالفا، للمعنى الفرعي الذي يفهم مما قبلها، ومغايرا له.

وتقع بعد النفي والإثبات، فإن كان المعنى الفرعي الناشئ مما قبلها موجبا، كان ما بعدها منفيا في معناه، وإن كان المعنى الفرعي قبلها منفيا في مضمونه، كان المعنى بعدها موجبا، فوجودها ينبئ عن المغايرة والمخالفة، بين معنى ما بعدها، والمعنى الفرعي المفهوم مما قبلها، من غير حاجة إلى أداة نافية في أحدهما [35] .

فيعلم في ضوء ما سبق أن المرسل يستعمل لفظ (لكن)؛ لعكس الاستدراك وتوجيه الحجاج لما سيتلوها اعتمادا على ما قيل قبلها، ومن ثم فكل خطاب تالٍ لها هو الحجة الأقوى صوب الدعوى،

---

(33) ينظر: البيان والتبيين: ج2/ 32
(34) المرجع السابق: الصفحة نفسها.
(35) النحو الوافي : عباس حسن، ط 18، دار المعارف، 1/ 632.

التي يدعيها المرسل، وهذا ما يجعل الاستدراك سبيلا إلى منح الحجة التي تأتي بعدها قوة أكبر [36] ، ولهذا تعد (لكن) من الروابط المدرجة للحجج القوية.

ولما كان هناك تعارض حجاجي بين ما يتقدم الرابط وبين ما يتلوه، [37] كانت (لكن) من روابط التعارض الحجاجي. وبهذا تكون الحجة الأولى موجهةً نحو نتيجة معينة "ن"، والحجة الثانية موجهة نحو النتيجة المضادة لها؛ أي: "لا - ن "، وتكون الحجة الثانية أقوى من الأولى.

ويمكن توضيح هذه العلاقة الحجاجية بواسطة الرسم البياني التالي:

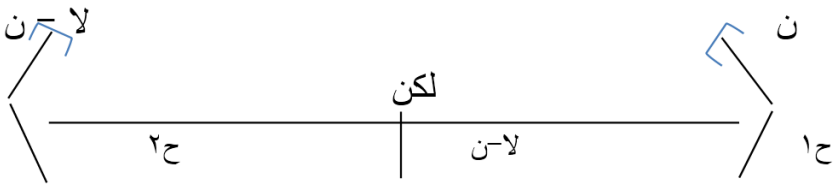

ويظهر ذلك في قوله ρ: "إن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون"[38].

فالحجة الأولى مضمرة يفسرها ما قبلها وهي أن الربا بكافة أشكاله موضوع بما فيه رؤوس الأموال، ومن ثم جاءت تلك الحجة، تخدم نتيجة مفادها: أن كل الربا بجميع أشكاله باطل وساقط، ثم جاء الرابط الحجاجي (لكن)؛ ليسوق حجة (لكم رؤوس أموالكم) تخدم نتيجة مضادة للنتيجة السابقة (لا- ن)،وهي أن رؤوس الأموال النافعة من الأمور المحمودة، التي حرص عليها الإسلام؛ لأبقاء الكيان الاقتصادي، ويمكن تمثيل ذلك على النحو التالي:

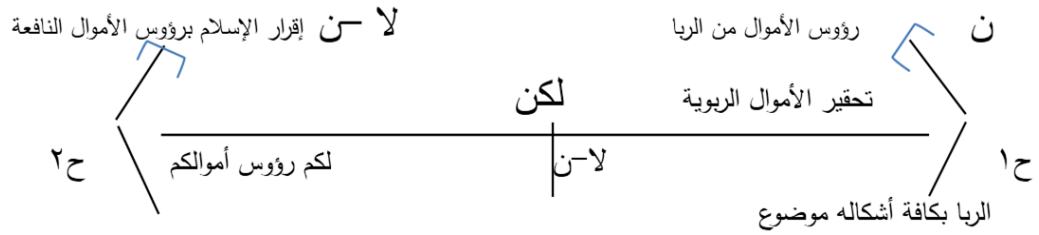

وقوله ρ:" فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم". [39]

وقد ربط هنا الرابط الحجاجي (لكن) حجتين متضادتين، الأولى: هي توهم الناس بيأس الشيطان من عبادة أهل مكة له، وتؤول هذه الحجة إلى نتيجة مفادها اطمئنان الناس، وعدم تخوفهم من

---

(36) ينظر: استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، مرجع سابق ص511.
(37) اللغة والحجاج، مرجع سابق ص 58.
(38) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب: عبدالوهاب النويري، تحقيق: د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م. ج17/ 264
(39) ينظر: البيان والتبيين: ج2/ 32

غواية الشيطان لهم، والحجة الثانية جاءت مضادة للأولى، مفادها عدم يأس الشيطان يأسا كاملا من اتباعهم له، وأنه ارتضى منهم اقترافهم الآثام ولو كانت محقرات الذنوب، وبهذا جاءت هذه الحجة تخدم نتيجة مضادة للنتيجة الأولى، وهي عدم الاطمئنان للشيطان، والحذر منه ومحاربة غواياته، والانتصار عليه قدر المستطاع.

وكان لألفاظ التعليل وجود بارز، فتستخدم ألفاظ التعليل في الخطاب الحجاجي، وهي من الأدوات اللغوية التي يستعملها المرسل لتركيب خطابه، وبناء حججه فيه، ومنها المفعول لأجله، وكلمة السبب، ولأن [40]، و(كي) الناصبة للفعل المضارع، واللام سواء أكانت لام كي، أم لام التعليل (ناصبة للمضارع أو جارة)، إلخ، ويسعمل المحاجج هذه الأدوات؛ لتبرير أو تعليل فعله، بناء على سؤال ملفوظ به أو مفترض [41]، وتعد ألفاظ التعليل من الروابط المدرجة للحجج، وفيما يلي تمثيل لهذا الأمر من خطبة الوداع:

فجاءت الفاء التعليلية في قوله ρ: "اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم" [42]، والفاء هنا تدل على السببية؛ حيث إن الحث على السماع لتوجيهات الرسول ρ والإنصات لقولهρ، مسبب عن شعوره ρ بدنو أجله وقرب رحيله، وإنه قد لا يلقاهم بعد هذا الموقف، ويمكن التمثيل لهذا الأمر حجاجيا من خلال الرسم التالي:

اسمعوا قولي ← فـ ← إني لا أدري لعلي لا ألقاكم

(النتيجة) (الرابط الحجاجي) (الحجة)

ومنها قوله ρ: "فاعقلوا -أيها الناس- قولي، فإني قد بلغت. .. فلن تضلوا". [43]

وجاءت الفاء التعليلية؛ لتربط بين الحجة (العلة)، والنتيجة (المعلول)، ويأتي ما بعدها علة لما قبلها، ومن ثم فهي من الروابط المدرجة للحجج؛ ولهذا قُدمت النتيجة، وهي: (فهم قول الرسول ρ ثم جاء بالفاء بعدها الحجة (فإني قد بلغت) مؤكدا حجته باستخدام حرف التوكيد قد؛ ليؤكد على أنه بلغ وقدم وصاياه وتوجيهاته، ثم جاء بالرابط الحجاجي (فاء التعليل) مرة أخرى؛ ليصل لنتيجة أخرى، وهي أنهم لن يضلوا بعد سماع توجيهاته، والتمسك بمصدر التشريع، والعمل بكتاب الله وسنة نبيه، ويمكن تمثيل ذلك بالشكل التالي:

فاعقلوا ← فـ إني قد تركت ← إني قد بلغت

(النتيجة) (الرابط الحجاجي) (الحجة)

أما عن لام التعليل فلم تحرم منها الخطبة، ومما جاء في نص الخطبة: "يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله" والمتأمل هنا يرى أن لام التعليل في قوله: "ليواطئوا" جاءت لتربط بين الحجة والنتيجة؛ لدعم وتبرير الحجة، وهي من الروابط المدرجة للحجج، ولذلك قُدِّمت

---

(40) استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، مرجع سابق ص 478.

(41) ينظر المرجع السابق : ص478، 479 .

(42) ينظر: البيان والتبيين: ج2/ 31

(43) ينظر: تاريخ الطبري: أبو محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة ط2، د.ت ، ج3/ 151

(النتيجة) (الرابط الحجاجي) (الحجة)

النتيجة وهي: (إحلال ما حرمه الله وتحريم ما أحله الله)، ثم الرابط الحجاجي (اللام)، بعد ذلك الحجة الأولى (توطئة عدة ما حرم الله).

وأما عن العوامل الحجاجية فقد وردت بالخطبة، والعوامل الحجاجية في اللغة العربية كأدوات النفي، وأدوات القصر، والتوكيد، أو بعض المكونات المعجمية مثل: (ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، منذ الظرفية، في الأقل،إلخ) [44]، فهي لا تربط بين الأقوال كالروابط الحجاجية، وإنما تدخل على القول الواحد، فتحدد إمكاناته الحجاجية، ومن العوامل الحجاجية التي استخدمها الرسول ρ عناصر التوكيد وسأعرض لها خلال السطور التالية.

تدخل أدوات التوكيد على الجملة حسب قصد المرسل إفادة المخاطب برسالته التي يوجهها له، فينبغي أن يقتصر من الكلام على قدر الحاجة؛ وتظهر علاقة التوكيد بالحجاج في حاجة المحاجج إلى استخدام أدوات التوكيد عوامل حجاجية، تسهم في إقناع المخاطَب إذا كان مترددا في الخبر أو منكرا له؛ حيث إن للمخاطَب ثلاثة أحوال [45] ، فإن كان المخاطب خالي الذهن من الحكم، ألقي إليه الخبر مجردًا عن التأكيد، نحو: أخوك قادم، وإن كان مترددًا فيه، طالبًا لمعرفته، حسُن توكيده، نحو: إن أخاك قادم، وإن كان منكرًا له، وجب توكيده بمؤكد أو مؤكدين، أو أكثر، حسب درجة الإنكار، نحو: إن أخاك قادم، أو إنه لقادم، أو والله، إنه لقادم.

وقد حفلت الخطبة بالكثير من وسائل التوكيد؛ ليقر ρ، ويؤكد ما أراد إرساءه من مبادئ وأسس للمجتمع الإسلامي، ومما جاء مؤكدا في خطبة الوداع ما يلي:

قوله ρ: "أيها الناس، اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم"، ففي سياق تأكيد الرسول ρ لعدم معرفته بلقاء ربه، استخدم (إن)؛ لتأكيد حجته، و(إن) من مؤكدات الجملة الاسمية، ويذكر سيبويه(ت180هـ) أنها: "بمنزلة الفعل لا يعمل فيها ما يعمل في (أنَّ) كما لا يعمل في الفعل ما يعمل في الأسماء، ولا تكون إنَّ إلا مبتدأةً، وذلك قولك: إن زيداً منطلق، وإنك ذاهب" [46] ، وهي حرف "لتوكيد النسبة ونفي الشك عنها والإنكار لها" [47] ، فقد أكدت إن الحجة فهو، وإن كان نبيا إلا أنه أراد أن يثبت للناس جميعا بأنه لا يعلم متى يلقى ربه جل وعلا؛ وحتى يؤكد ويرسخ هذا المفهوم الغيبي في نفوس الناس، وخاصة في لقائه الأخير بهم؛ لذا جاءت الحجة قوية ومؤكدة.

وقولهρ أيضا:" ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي وموضوع، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع... وإن كل ربا موضوع"

---

(44) الطرائق الحجاجية النحوية في الخطابة السياسية : خالد إسماعيل صاحب، العدد1، مجلة كلية التربية والعلوم الإنسانية، جامعة ذي قار، 2015م، مج 5، ص 165 .

(45) ينظر : الكافي في البلاغة البيان والبديع و المعاني ، مرجع سابق ص401.

(46) الكتاب : سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ص 120 .

(47) في علم النحو دراسة ومحاوره : أحمد ماهر البقري ، ط 2، دار المعارف 1984، ص85 .

ففي سياق تأكيد الرسول ρ لرفض كل ما كان من أمر الجاهلية من ثارات دموية ومعاملات ربوية، جاءت الحجة مؤكدة بمجموعة من المؤكدات اللغوية وهي (إن- كل- أن).

وقولهρ: "فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم..."

فجاءت الفقرة السابقة مليئة بحروف التوكيد، وقد جاء خطاب رسول الله ص في سياق التحذير من فتن الشيطان وغواياته، وقد وظف (ص) وسائل التوكيد بخطابه؛ لتوضيح وترسيخ الدين في نفوس المسلمين حتى لو لم يكن للشيطان أمل في غواية أهل مكة، فاستخدم المؤكدات اللغوية (إن- قد- أن- هذه- أبدا) وكلها من أجل الوصول إلى نتيجة واحدة، وهي وجوب محاربة الشيطان بكل مغرياته، ومن الجدير بالذكر أن هناك حجة أخرى أكدها الرسول (ص) وقد أكدها بـ(إن- قد)، وهي أن الشيطان رغم يأسه من اتباع أهل مكة له، إلا أنه ما يزال على أمل منهم في اقترافهم الآثام، ولو كانت هينة سهلة؛ لذلك يحذرنا (ص)من الشيطان ويؤكد على ذلك، وبذلك تساوقت تلك الحجة مع الحجة السابقة لخدمة نتيجة واحدة وهي التحذير من الشيطان وفتنه.

وقوله ρ: "إن المسلمين إخوة. ..ألا هل بلغت ؟ اللهم، اشهد. فلا ترجعن بعدي كفارا.." ويلاحظ هنا تأكيد الرسول ρ حجته بأكثر من مؤكد، فاستخدم إن لتأكيد الصلة بين المؤمنين، وجعلهم إخوة، ثم استخدم نون التوكيد الثقيلة، وهي غالباً ما تأتي مع الفعل المضارع المسبوق بجملة طلبية سواء أكانت (أمراً – نهياً – دعاءً – تمنيًا،إلخ) وتدخل على الفعل الأمر جوازاً" واعلم أن كل شيء دخلته الخفيفة قد تدخله الثقيلة، كما أن كل شيء تدخله الثقيلة تدخله الخفيفة " [48] ، وحيث إن السياق متعلق بالنهي عن الفرقة والاختلاف بينهم فأكد الرسول (ص) خطابه بنون التوكيد الثقلية، ومعروف أن كل زيادة في المبنى يكون لها زيادة في المعنى.

وأما عن الوسائل اللغوية، فتعد اللغة الوسيلة التي يستخدمها المحاجج؛ لتحقيق الهدف المنشود الذي يسعى إليه وهو الإقناع، فتستخدم اللغة؛ لنقل المعنى والتواصل بين البشر، ومن وسائل الإقناع اللغوية في خطبة حجة الوداع ما يلي:

وأما عن أسلوب الاستفهام، فالاستفهام هو طلب ما في الخارج أن يحصل في الذهن من تصور أو تصديق موجب أو منفي، والألفاظ الموضوعة له: (الهمزة) و"هل"، و"ما"، و"من"، و"أي"، و"كم"، و"كيف"، و"أين"، و"أنى"، و"متى"، و:أيان" [49] ولأسلوب الاستفهام دلالات متعددة، يصعب حصرها؛ فكل أداة من أدوات الاستفهام يمكن استخدامها في أكثر من معنى، وتختلف في استخدامها من موضع إلى آخر "فهذه الألفاظ كثيراً ما تستعمل في معانٍ غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام" [50]، فقد تأتي الأداة " هل " - مثلا –؛ لتفيد التقرير والتوكيد كقوله تعالى: " هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ" [الإنسان: 1]، فجاءت بمعنى قد، وتأتي بمعنى النفي كقوله تعالى: " هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ" [الرحمن: 60]، وهكذا يختلف استعمال الأداة الواحدة

---

(48) الكتاب : مرجع سابق ج3، ص508.

(49) الإيضاح في علوم البلاغة :القزويني ص 228، وكذلك المصباح في المعاني والبيان والبديع: بدر الدين بن مالك ، تحقيق حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب، ص 83 .

(50) الإيضاح في علوم البلاغة : مرجع السابق، ص234 .

من موضع إلى آخر، ويدلنا عليها سياق الكلام وصياغته، فالسياق عنصر رئيس من عناصر المعنى.

ويعد الاستفهام التقريري من الوسائل المستخدمة في الحجاج، حيث إن له إقناعا كبيرا، وتأثيرا شديدا على المستقبل؛ لأنه يشارك المرسل في العملية الحجاجية، ويصبح طرفا الإبداع، فوظيفة الاستفهام التقريري في الحجاج أنه يستوجب على المخاطب إعمال ذهنه، حيث يعلم المتلقي أن المتكلم لا يقدم هذه الأسئلة بغرض الإجابة عنها، ويكون الغرض من الاستفهام التقرير والتوكيد " ولحمل المخاطب على الاعتراف بموضوع قد استقر عنده في شك المتكلم" [51].

وقد استخدم الرسولρ همزة الاستفهام؛ للتعبير عن هذا الغرض، وتعد الهمزة أم باب الاستفهام" [52]، ويذكر الدكتور "تمام حسان" أن: "الهمزة أصل أدوات الاستفهام؛ ولذلك استأثرت بالصدارة المطلقة حتى على حروف العطف، وجاءت لمعان أخرى كالتسوية، وطلب التعيين وقد تحذف" [53] "ومما اعتمد عليه النحاة في أن الهمزة أم الباب، وأصل العناصر في الاستفهام، أنها تدخل على الإثبات والنفي وأنها تحذف وتبقى الجملة من باب الاستفهام" [54]

ومن ذلك قوله (ص): "أتدرون أي يوم هذا؟ وأي شهر هذا ؟ وأي بلد هذا؟" وقد جاء الخطاب هنا في سياق التحذير من حرمات الله، وللتأكيد على هذه الحجة جيء بالاستفهام عن المعلوم، حيث إن الرسول (ص) يعلم جيدا معرفتهم بإجابات تلك الأسئلة، ولكنه أراد التحذير من انتهاك حرمات الله وهي الدم والمال والعرض كحرمة اليوم والشهر والبلد؛ فجاء الاستفهام يخدم نتيجة مفادها تعميق الشعور بالهيبة، والحذر من التعدي على حرمات الله في نفوس المخاطبين.

وقوله ρ أيضا: "اللهم، هل بلغت. .فما أنتم قائلون؟ " كذلك جاء الاستفهام هنا تقريريا يحمل بين طياته الشعور بالرضا، والارتياح على أداء الرسالة؛ فساعد في تقوية الحجة، فهو يشهد الله، ويشهد الحاضرين أنه أدى الأمانة وبلغ الرسالة؛ حتى تكون كلماته ووصاياه منهجا لهم ودستورا حتى بعد غيابه وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، فكان للاستفهام دور في إيقاظ عقول المستمعين، ولفت انتباههم، ثم يؤكد الحجة بطريقة أخرى باستجوابه لهم بقوله ρ: "فما أنتم قائلون؟.."؛ ليستنطقهم بالحجة، ويشهدهم على أنفسهم أنه قد أبلغ رسالته، وأدى أمانته على أكمل وجه، ثم نراه ينهي خطبته باستفهام آخر: " ألا هل بلغت؟. .." كل هذا يهدف للوصول لنتيجة واحدة وهي تأدية رسالته كاملة غير منقوصة.

وأما عن أسلوبا الأمر والنهي فتجليا في الخطبة، فالأمر هو "اصطلاح ما قرن باللام الجازم أو ضمن معناه، ولغة: حصول الثبوت في الخارج بذلك على وجه الاستعلاء" [55] أي أنه طلب فعل الشيء على وجه الإلزام، وله أربع صيغ (فعل أمر مثل "اكتب"، اسم فعل الأمر"حذار"، المضارع المقترن بلام الأمر "لتكتب"، المصدر النائب عن فعل الأمر).

وأما أسلوب النهى فاصطلاحا هو: "ما قرن بلا الجازمة، ولغة: طلب حصول الانتفاء في الخارج بذلك على وجه الاستعلاء" [56]، أي أنه طلب الامتناع عن فعل شيء معين، " وله حرف واحد وهو "لا" في نحو قولك: لا تفعل؛ وهو كالأمر في الاستعلاء، وقد يستعمل في غير طلب

---

[51] في التحليل اللغوي – منهج وصفي تحليلي وتطبيقه على التوكيد اللغوي، والنفي اللغوي، وأسلوب الاستفهام :خليل أحمد عمايرة، سلمان حسن العاني :، ط1، مكتبة المنار الأردن، 1987م، ص114.

[52] شرح المفصل :ابن يعيش، مكتبة المتنبي القاهرة، 1990 السابق ج8 ص151.

[53] الخلاصة النحوية: تمام حسان :، ص 142 .

[54] في التحليل اللغوي :مرجع سابق ص 112.

[55] الإيضاح في علوم البلاغة :مرجع سابق، ص 241 .

[56] بدر الدين بن مالك ابن الناظم : السابق، ص 91.

الكف أو الترك كالتهديد كقولك لعبد لا يمتثل أمرك: "لا تمتثل أمري" [57] وبهذا قد يخرج النهي من دلالته الحقيقية إلى دلالات أخرى بلاغية.

ويستخدم كلٌ من الأمر والنهي في العملية الحجاجية؛ حيث إنهما يهدفان إلى توجيه المخاطب إلى سلوك معين، ومن أمثلتهما الواردة في الخطبة قوله (ص): " أيها الناس، اسمعوا قولي" وكرره في موضع آخر فقال: " فاعقلوا – أيها الناس قولي"، وقال أيضا: "اسمعوا قولي واعقلوه"، فكرر هذا الفعل أكثر من مرة، وهذه الأفعال التي صدرت عن رسول الله (ص) تكتسب بعدا حجاجيا؛ إذ تضمنت حجة تفضي إلى نتيجة ضمنية هي الاهتمام بما سيصدر عنه (ص) من وصايا وتوجيهات، والحقيقة أن الأمر هنا لم يكن أمرا حقيقيا بمفهومه الجاف الفج، الذي يحمل بين طياته صفة القوة والشدة، فليس من المعقول أن يستهل(ص) خطبته استهلالا رقيقا، ثم يعدل عن ذلك مباشرة ويستخدم الأمر الجاف، رغم أنه رسول الله (ص)بإمكانه أن يأمر فيطاع على الفور، ولكنه ρ أرفع وأسمى من ذلك، فإن الأمر هنا جاء من قبيل الأمر المجازي، وجاء به للفت أنظار أمته وتوجيههم وتنبيههم لما سيوصي به من أمور.

وقوله (ص): "فاحذروه على دينكم"، فالأمر هنا هو بمنزلة الحجة التي يريد النبي ρ الوصول بها إلي نتيجة واحدة وهي محاربة الشيطان وفتنه.

وقوله: "فاتقوا الله في النساء. .. واستوصوا بهن خيرا"، فقد طلب الرسول (ص) من الرجال أن يتقوا الله في النساء، ويستوصوا بهن خيرا، إذا فالأفعال (اتقوا – استوصوا) تضمنت حججا تفضي إلى تحقيق عدة نتائج قصد إليها النبي(ص)، وهي الاهتمام بالمرأة، ومعاملة النساء معاملة حسنة، والرحمة بهن، والرفق واللين في التعامل معهن، ومعرفة حقوقهن على الرجل.

وقوله: "ألا ليبلغ الشاهد الغائب" و"اللهم اشهد" جاء الأمر هنا؛ لتقوية الحجة والوصول إلى نتيجة ضمنية مفادها، أهمية مضمون خطابه (ص) لعموم الناس؛ حيث إنه يشعر بدنو أجله ؛لذا فأمر بأن يبلغ الحاضر الغائب.

وأما النهي فيظهر في الخطبة في قوله (ص): "أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت؟ وإنكم ستلقون ربكم، فلا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض"، وقد استخدم النبي(ص) النهي التحذيري (لا يحل- لا تظلمن)؛ لتقوية الحجة التي يريد التأكيد عليها، وهي أن المسلمين إخوة فيصل إلى نتيجة واحدة، وهي عدم ظلم الإنسان لنفسه بأخذ مال أخيه بدون رضاه، وكذلك النهي (لا ترجعوا)؛ لتقوية الحجة، وهي عدم العودة إلى الضلال والكفر؛ للوصول إلى نتيجة واحدة، وهي التمسك بدين الله والمحافظة على حدوده وآدابه.

المبحث الثاني: آليات الحجاج البلاغية.

---

[57] الإيضاح : السابق، 244 .

استعان الرسول (ص) في خطابه الحجاجي في خطبة الوداع بألوان البلاغة العربية البيانية التشبيهية، والبديعية من التكرار والثنائيات الضدية، ومن الآليات البلاغية التي ظهرت في الخطبة ما يلي:

آليات الحجاج البيانية (التشبيهية)، فيعد التشبيه من الوسائل الحجاجية القوية؛ حيث إنه يوضح الفكرة، ويقوى المعنى من خلال التشخيص، أو التجسيم، أو التوضيح [58]. ويقوم التشبيه على عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر، قُصد اشتراكهما في صفة أو أكثر [59]، ومن ثم تنشأ بلاغة التشبيه من أنه ينتقل بك من الشيء نفسه إلى شيء طريف يشبهه، أو صورة بارعة تمثله، وكلما كان هذا الانتقال بعيدا، كان التشبيه أروع للنفس [60]، وأنجع في الحجاج؛ حيث يُشرك المتلقي في العملية الحجاجية بإثارة ذهنه، وشغل تفكيره بالبحث عن العلاقة التي تربط بين المشبه والمشبه به، ومن ثم يكون التشبيه أدعى إلى إقناعه.

ومن أمثلة الاحتجاج بالتشبيه في خطبة الوداع قول الرسول (ص): "ألا وإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقون ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة هذا في بلدكم هذا " ففي سياق الحديث عن الحرمات التي حرمها الله من دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، والتي تعد من أكبر القضايا في حياة المسلم.

وحاول (ص) توضيح هذا الأمر؛ فجاء بالتشبيه المرسل، فشبه هذه الأمور المحرمة (الدم والمال والعرض) بأمور معروفة الحرمة في نفوس المخاطبين، وذات رهبة في وجدانهم، وذلك بجامع مقدار الحرمة، فكما حرم القتال في يومهم هذا وشهرهم وبلدهم، فكذلك حرم عليهم سفك الدماء وأخذ الأموال بالباطل والخوض في الأعراض، ومن ثم كان للتشبيه أثر في تأكيد الحجة ودعمها.

وجاء في الاحتجاج للاهتمام بحقوق المرأة، والعطف عليها وتوضيح العلاقة بينها وبين الرجل قوله (ص): "فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرا، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا" فاستخدم التشبيه البليغ فشبه النساء بالأسيرات الضعيفات، فقد ملكها الرجل؛ لذا لا بد أن يراعي الله فيها ويعاملها بعطف وود ورحمة، وبذلك كان للتشبيه عظيم الأثر في توضيح العلاقة بين الرجل والمرأة، ويلاحظ حرص الرسول (ص) على البدء بحق المرأة أولا؛ نظرا لضعفها وحاجتها إلى الحنان والعطف، مؤكدا ذلك باستخدام حرف التوكيد (إن)، ثم أتبع هذا التوكيد باللام، التي توحي بالملكية والخصوصية في قوله: "لنسائكم" فتلك الحقوق ملك للمرأة، حرص عليها الدين والإسلام، إلا أنه عندما انتقل الأمر للحديث عن حق الرجل فلم يستخدم أي مؤكد، حيث قال(ص): "ولكم عليهن حق" لما للرجل من القوة والقوامة.

ومن آليات الحجاج الآليات البديعية، فيعد التكرار من أهم خصائص بنية النص الشعري، "وهو الممثل للبنية العميقة، التي تحكم حركة المعنى في مختلف أنواع البديع" [61] كما أن له دوراً دلالياً على مستوى الصيغة والتركيب، لما له من صلة وثيقة بالأداء اللغوي، ويلجأ الشاعر إلى

---

[58] ينظر : الكافي في البلاغة، مرجع سابق ص 58، 59.
[59] جواهر البلاغة، مرجع سابق ص 183.
[60] السابق : 214 .
[61] بناء الأسلوب في شعر الحداثة التكوين البديعي: محمد عبد المطلب، ط2، دار المعارف، 1995م، ص112 .

استخدام ظاهرة التكرار؛ لدوافع نفسية وأخرى فنية، فدوافعه النفسية إنما يرجع سببها إلى إقامة جسر من التواصل بينه، وبين المتلقي بحيث يجعله يتأثر، ويتجاوب مع حالته النفسية، التي دفعته إلى تكرار ألفاظ بعينها في عباراته، أما دوافعه الفنية، فتكمن في "تحقيق النغمية، والرمز لأسلوبه، ففي النغمية هندسة الموسيقا، التي تؤهل العبارة وتغني المعنى، وللتكرار خفة وجمال لا يخفيان، ولا يغفل أثرهما في النفس، حيث إن الفقرات الإيقاعية المتناسقة تشيع في القصيدة لمسات عاطفية وجدانية، يفرغها إيقاع المفردات المكررة بشكل تصحبه الدهشة والمفاجأة" [62].

وقد تنبه علماء اللغة والبلاغة القدماء إلي ظاهرة التكرار، فهو في اللغة مأخوذ من كرر الشيء تكريرا وتكرارا: أعاده مرة بعد أخري [63] ، أما في اصطلاح البلاغيين: "عبارة عن تكرير كلمة، فأكثر بالمعني واللفظة؛ لنكتة، إما للتوكيد، أو لزيادة التنبيه أو للتهويل أو للتعظيم أو للتلذذ بذكر المكرر،إلخ [64]، ويرى ضياء الدين ابن الأثير (ت630هـ) " أن المفيد من التكرير أن يأتي في الكلام تأكيداً له وتشييداً من أمره. وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك؛ إما مبالغة في مدحه، أو في ذمه، أو غير ذلك" [65].

وقد استعمل النبي (ص) أسلوب التكرار وجعله من أهم الوسائل التي استخدمها في الدعوة وطريقة من طرق التبليغ، ويلاحظ بروز ظاهر التكرار في الخطبة، فكرر الحرف والكلمة والمضمون، وكان له هدف في ذلك، كتأكيد المعنى أو التحذير منه، أو الترغيب فيه أو زيادة للتنبيه، أو لإشعار المخاطبين بأهمية المكرر.

ومن صور التكرار في الخطبة قوله (ص): " ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله"، فالملاحظ هنا أن الفقرة ارتكزت على التكرار، فالحديث هنا في سياق الاحتجاج لرفض الرسول (ص) لكل ما كان من أمر الجاهلية، فكرر حرف التوكيد (إن-أن) ست مرات، وكرر لفظة (موضوع) أربع مرات، كما يلاحظ تكرار النبي ρ لفكرة تحريم الربا، كل هذا؛ ليؤكد حجته، ويصل لنتيجة مفادها تحريم كل ما كان من أمر الجاهلية، وقد ساهم التوكيد في دعم وتقرير الحجة.

ومن صور التكرار في الخطبة قوله: "أتدرون أي يوم هذا؟ وأي شهر هذا وأي بلد هذا؟ فقالوا: هذا بلد حرام وشهر حرام ويوم حرام"، ويلاحظ استخدام الرسول (ص) للتكرار هنا بأكثر من صورة فقد كرر اسم الإشار(هذا) في سياق الاحتجاج لتحريم ما حرمه الله من سفك الدماء وأخذ الأموال وانتهاك الأعراض، كذلك كرر صيغة الاستفهام؛ لإيقاظ المخاطبين، وإثارة انتباههم لما يريد إيصاله لهم بشأن هذه الحرمات، ثم يكرر ρ لفظة (حرام) على لسان المخاطبين؛ لتأكيد قناعتهم بحجته، وأن حرمات الله كحرمة اليوم والشهر والبلد، وبهذا كان للتكرار دور في دعم وتقرير الحجة والوصول لنتيجة واحدة وهي عدم انتهاك حرمات الله.

---

(62) البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث :مصطفى السعدني، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1987، ص173.
(63) مادة كرر : القاموس المحيط .
(64) أنوار الربيع في أنوار البديع : ابن معصوم ، تحقيق شاكر هادي شكر، ط 1، مطبعة التهامي ، 1969، ج5، ص 345 : 352.
(65) المثل السائر : ابن الأثير، ج3 ص4 .

وتكرار "أيها الناس" هذا النداء الإنساني، الذي يمتلئ بالرحمة والشفقة، والذي تكرر سبع مرات في سائر الخطبة، وقد تجددت دلالته في كل مرة استخدمها الرسول (ص) من السياق الجديد الذي وضع فيه فتولد عنه معانٍ جديدة متعددة بتجدد السياق ذاته، وقد كرر هذه العبارة لجذب الانتباه وإيقاظ الأسماع ترقبا لما سيصدر عنه من أمر عظيم يقوله، ومن قضايا مهمة تحتاج إلى الاهتمام والإنصات، وبما أن المقام مقام وعظ وإرشاد ووداع، فقد ساعد التكرار في تقوية الحجج التي أراد النبي (ص) توضيحها للمخاطبين من سماع لقوله، ومن التحذير من انتهاك حرمات الله، ومن التحذير من الشيطان وغواياته.. وغيرها من قضايا وضحها الرسول ρ في خطابه.

ومن التراكيب التي كررها الرسول (ص) " هل بلغت؟" فتكررت سبع مرات في الخطبة، ففي سياق الاحتجاج لمضمون القضايا الدينية والدنيوية، التي يتناولها الرسول (ص) والتي تخص المسلمين، وأنه يريد أن يبرئ ذمته؛ ليكون راضيا عن نفسه غير شاعر بقصور أو تهاون؛ فكرر هذا السؤال؛ ليؤكد حجته، ويلاحظ استخدام (ألا) وهي "حرف استفتاح، وقد زاد الزبيدي في تاجه أنها تفيد الطلب اللين" [66]، وهذا ما يقصده الرسول ρ فلم يكن (ص) قاسيا أو فظ القلب، وإنما كان رحيما حنونا، كما يلاحظ أن (ألا) جاءت مقترنة بـ(هل) في كل الحالات التي وردت فيها، وهو استفهام خرج عن معناه الحقيقي، وجاء بمعنى قد للتقرير وإثبات الحجة على المخاطبين، ومن ثم ساهم تكرار الألفاظ في إقناع المتلقي بالحجة المعروضة.

ومن صور التكرار أيضا في الخطبة ما يعرف بـ(هندسة العبارات)(التوازي النحوي): وهي أن تكون العبارات متناسقة ومتوازنة في عدد كلماتها ووزنها، بأن يكرر المبدع التركيب في العبارة بنفس الترتيب النحوي وتعد "العبارة الموزونة كياناً ومركز ثقل وأطرافاً، وهي تخضع لنوع من الهندسة اللفظية الدقيقة التي لا بد للشاعر أن يعيها، وهو يدخل التكرار على بعض مناطقها" [67]، ويعد هذا النوع من أنواع السبك النحوي القائم على التكرار "فحين يرد في تركيب نحوي ما، ثم يرد محتوى آخر في التركيب نفسه، فإن هذا يعد وسيلة سبك؛ إذ فيه تكرار للبنية النحوية، مما يشكل التوازي، وينتج عن هذا التوازي النحوي – حتما – التوازي الصوتي، بل أعلى درجات التوازي الصوتي؛ حيث إنه يكون على مستوى التركيب، لا المفردة، وهو تواز صوتي عروضي حيث يكون في الشعر" [68].

ولا شك أن لهذا التكرار أغراضاً بلاغية، تفهم من خلال السياق، وليس مجرد أصوات متكررة، وهذا النوع من التكرار دليل على قدرة الأديب على التشكيل الموسيقي، ليس فقط في اختياره حرف أو لفظ وتكرارهما؛ ليشيع نغماً موسيقياً فحسب، وإنما استطاعته أن يؤلف مجموعة من الألفاظ في جمل متناسقة التركيب، ومتسقة الأوزان وهذا ما يسمى بموسيقا العبارة أو هندسة العبارة؛ حيث تنتظم الألفاظ بشكل وجرس معينين؛ لتحدث نغما موسيقيا متكررا بين العبارات، وتجعل المتلقي في حالة تشوق لسماع المقطع الآخر.

ويلجأ المحاجج إلى هذه الوسيلة لمخاطبة وجدان وشعور المتلقي، فما يحدثه الازدواج داخل النص من إيقاعات ونغمات وبخاصة في أواخر الجمل المتتابعة، يكون وقعه على نفسية المتلقي

---

[66] تاج العروس: محمد بن محمد الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين دار الهداية، ج40، ص379.
[67] قضايا الشعر المعاصر: نازك الملائكة ، ص 244 .
[68] ينظرالبديع بين البلاغة العربية والسانيات النصية :جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998 م، ص 71، 121 .

وأثره بارزا في توجيهه إلى جمل مقصودة دون أخرى داخل هذا النص، وهو ما يعكس قصد المحاجج إليه في تلك الجمل [69].

ومن صور ذلك في الخطبة قوله (ص) "من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له" ويبدو التكرار هنا جليا، فقد كرر الرسول (ص) نفس البناء التركيبي، وهذا دليل على براعته في استثمار مفردات اللغة ، فهذا التلاحم بين العبارات منح الجمل إيقاعاً موسيقياً، تلذ الأذن بتتبعه والتفاعل معه، والتكرار يسلط الضوء على الفكرة المسيطرة على النبي (ص) والحجة التي يريد تأكيدها، وهي أهمية القرب من الله ومحاولة إرضائه، فكرر النبي ρ نفس التركيب، ويكون التركيب المتكرر هو:

(حرف الشرط + فعل الشرط + جواب الشرط مقترنا بلا + الجار والمجرور)

من + يهد الله + فلا مضل + له

من + يضلل + فلا هادي + له

ويظهر تكرار البناء التركيبي في قولهρ: "أوصيكم –عباد الله- بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير "في سياق التأكيد على أهمية طاعة الله والخضوع له والاستجابة لأوامره ونواهيه، ويكون التركيب المكرر على الشكل التالي:

الفعل المضارع + ضمير المخاطب + الجار والمجرور + مضاف إليه

أوصي + كم + بتقوى + الله

أحث + كم + على طاعته

وتكرار النعت والمنعوت أيضا في قولهρ: "هذا بلد حرام، وشهر حرام، ويوم حرام" في سياق تأكيد حجة التحذير من حرمات الله وتشبيهها بحرمة اليوم والشهر والبلد.

يكرر نفس التركيب والبناء النحوي في قوله(ص): " فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله " في سياق الاحتجاج على موقف أهل الجاهلية في عملهم بالنسيء للتحايل على الاستمرار في القتال في الأشهر الحرم.

وأما عن الثنائيات الضدية، فيوافق مصطلح الثنائيات الضدية في الشعر العربي القديم ما يعرف بالتضاد أو الطباق، وهو "الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة" [70]، ويمكن أن تكون الألفاظ المتضادة متتابعة لا يفصل بينها سوى حرف، أو متباعدة يفصل بين اللفظين لفظ أو ألفاظ كثيرة[71].

---

(69) استراتيجية الحجاج التعليمي عند الشيخ "البشير الإبراهيمي"، مقال الطلاق نموذجا / الجزء الثاني: حمدي منصور جودي، العددان : العاشر والحادي عشر، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر – بسكرة، ، 2012م، ص 332.

(70) القزويني : الإيضاح، ص 477 .

(71) السابق : ص 484 .

وقد ذكر القزويني أن من ملحقات التضاد ما يسمى بـ "إيهام التضاد"، وهو "ما يكون التقابل فيه بين الظاهر من مفهوم اللفظين، وأن يكون بين حقيقة المراد منها تقابل ما، كقوله:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى"

وقد وجد التقسيم الثنائي في النقد العربي القديم؛ حيث ظهرت مجموعة من الثنائيات في الدراسات البلاغية والنقدية، كثنائية اللفظ والمعنى، وثنائية الشعر والنظم، وتلك النظرة الثنائية التي تحمل خاصية التضاد بين مجموعة من القضايا، والظواهر هي التي تجسد تفاعل الذات الإبداعية بالذات الإنسانية مع واقعها؛ حيث تصبح إطاراً لمواقف الإنسان الفكرية والفلسفية في ذلك العصر.

وتعد الثنائيات المتضادة البناء الداخلي الذي يعمل على تماسك القصيدة، كما أنها تمثل جزءاً من الإيقاع الداخلي، وتعبر عن نفسية الشاعر المضطربة التي تبحث عن التوازن، وانطلاقا من أن الشعر يعد رؤية للحياة وانعكاساً للوجود ومعبراً عنه؛ حيث إن الثنائية أهم خصائص الحياة، فهي سنة الحياة والوجود، وقد تبين ذلك في كتاب الله العزيز في العديد من الآيات كقوله تعالى: "وسخر لهم الشمس والقمر... وسخر لكم الليل والنهار" [إبراهيم : 33]، وقوله " الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور"[الملك : 2]، وغيرها من الآيات.

وقد ذهبت المدرسة البنيوية الحديثة إلى إقرار الطابع الثنائي والتركيز عليه واعتماده أساساً قويا لإقامة مجمل دراساتها، ويرى الدكتور "صلاح فضل" أن التضاد الأسلوبي هو " نموذج لغوي ينكسر بعنصر غير متوقع، والتضاد الناجم عن هذا الاختلاف هو المثير الأسلوبي، وقيمة التضاد الأسلوبية تكمن في نظام العلاقات الذي تقيمه بين العنصرين المتقابلين، فلن يكون له أي تأثير ما لم يتداع في توال لغوي، وبعبارة أخرى فإن عمليات التضاد الأسلوبية تخلق بنية، مثلها في ذلك مثل بقية المتقابلات المثمرة في اللغة" [72]، وكلما كان العنصر غير متوقع كلما أدى ذلك إلى الإثارة والدهشة والفاعلية، فالنموذج يدرك بفضل كسره.

ومن صور الثنائيات المتضادة في خطبة الوداع قوله ρ: "من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له"، فقد وقعت ثنائية التضاد بين الجملتين السابقتين، والهداية من الله دليل على رضا الله على عبده، والضلال دليل على سخط الله على عبده، ومن ثم جاءت المقابلة في الاحتجاج؛ لفضل طاعة الله والبعد عن معصيته، وصولا إلى رضاه وهدايته وحبه.

ومن صور الثنائيات المتضادة قوله (ص): "فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله" ففي سياق التحذير من التحريف بالأشهر والتلاعب بعدتها، جاءت المقابلة في الاحتجاج للتأكيد على خطورة هذا الأمر، ووجوب احترام الزمن كما أوجده الله.

المبحث الثالث: العدول التركيبي وأثره في الحجاج.

يتمثل العدول التركيبي في الحجاج في تغييرات داخل الجملة العربية من تقديم أو تأخير، وذكر وحذف، أما عن التقديم والتأخير، فللجملة العربية نظام معين وضعه النحاة من حيث الترتيب، وقد

---

[72] علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته :صلاح فضل ، ص 256 .

قسموا الجملة إلى مسند، ومسند إليه، وما يتعلق بالإسناد، فالأصل في المبتدأ أن يتقدم على الخبر؛ حيث إنه وصف في المعنى للمبتدأ، ويجوز تقديم الخبر على المبتدأ، وقد حظيت قضية التقديم والتأخير باهتمام كبير من النحاة وعلماء البلاغة، وقامت دراسات كثيرة حولها، من حيث دوافعها وأهدافها والمواضع التي يصلح فيها التقديم والتأخير، وقدموا شواهد كثيرة عليها.

ويذكر "الخطيب القزويني" (ت/73هـ) بعض أسباب تقديم الخبر فيقول: "وأما تقديمه؛ فلكون ذكره أهم، وإما لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه، وإما ليتمكن الخبر في ذهن السامع، لأن في المبتدأ تشويقا إليه...وإما لتعجيل المسرة أو المساءة؛ لكونه صالحاً للتفاؤل أو التطير. .. وإما لإيهام أنه لا يزول عن الخاطر أو أنه يستلذ، فهو إلى الذكر أقرب" [73] ،وقد استحسن بعض النحاة والبلاغيين التقديم والتأخير، فيرى الجرجاني (ت471هـ) أنه: "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويقضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولَطُف عندك، أن قدم فيه شيء، وحُوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان" [74].

ويؤكد الدكتور تمام حسان ذلك فيقول: "الأصل الرتبة بين عناصر الجملة وقد يعدل عنها إلى التقديم والتأخير" [75]، فعلى الرغم من أن للجملة ترتيباً مثالياً، إلا أن هذا الترتيب يمكن أن يطرأ عليه بعض التغيرات من حيث الترتيب بحيث يقدم المسند أو يؤخر، بشرط ألا يسبب ذلك غموضًا في معنى الجملة أو اختلالاً في نظم الكلام، وأن يضفى جمالاً ورونقاً على الجملة.

ويمثل التقديم والتأخير واحداً من أبرز مظاهر العدول في التركيب اللغوي، وهو يحقق غرضا نفسياً ودلالياً، ويقوم بوظيفة جمالية باعتباره ملمحاً أسلوبياً خاصاً، ويتم عن طريق كسر العلاقة الطبيعية المألوفة بين المسند والمسند إليه في الجملة؛ ليضعها في سياقٍ جديدٍ وعلاقةٍ متميزة [76].

ومن المعروف أن هناك مواضع، حددها النحاة يجب فيها التقديم، وهذه المواضع لم أتعرض لها في هذه الدراسة؛ حيث لا أثر لقيمة التوكيد فيها من الناحية البلاغية "ويجب أن نعرف الأسس التي يقوم عليها التقديم؛ إذ إن منه ما يكون واجباً ومنه ما يكون جائزاً، فلا أثر لقيمة معنى التوكيد فيما كان فيه التقديم واجباً أو هو نمط من أنماط جرت عليه العربية في بنائها" [77].

وأما عن الغرض البلاغي للتقديم والتأخير، فغالباً ما يكون للعناية والاهتمام "فالتقديم في التركيب الجملي في اللغة العربية لا يكون إلا عندما يقصد المتكلم المدرك لأساليب هذه اللغة أن يؤكد موضع الاهتمام والعناية، أو كما يقول سيبويه: "والعرب إن أرادت العناية بشيء قدمته" [78]، ويؤكد الجرجاني هذا الرأي فيقول: "واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً، يجري مجرى الأصل، غير العناية والاهتمام"[79].

---

[73] القزوينى : الإيضاح في علوم البلاغة ص 135.
[74] الجرجاني : دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر . الهيئة المصرية للكتاب، 2000، ص 106 .
[75] الأصول دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب النحو- فقه اللغة- البلاغة : تمام حسان، عالم الكتب، 2004م، ص 121.
[76] د/ راشد بن حمد بن هاشل الحسينى : السابق، ص 233.
[77] د/ خليل أحمد عمايرة : السابق، ص 213 .
[78] السابق ص212.
[79] الجرجاني : السابق ص107 .

ومن نماذج التقديم والتأخير في خطبة الوداع قوله (ص): "ألا وإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقون ربكم"، فقدم الخبر (عليكم) على المبتدأ ورغم أن التقديم هنا واجب إلا أن الرسولρ كان له غاية معنوية في تقوية الحجة والوصول إلى نتيجة مفادها التحذير من حرمة الدماء والأموال والأعراض، وتخصيص هذه الحرمة على المخاطبين، فضلا عن التناغم اللفظي الحادث من التقديم والتأخير.

وقوله أيضا: "إن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون"، جاء التقديم والتأخير؛ ليقوي الحجة وهي استثناء الأموال النافعة من الأموال الربوية، وأنها حق من الحقوق المشروعة؛ ليصل لنتيجة مفادها بعث الطمأنينة في نفوس المخاطبين؛ فلذلك قدم الخبر (لكم)، فساهم بذلك التقديم والتأخير في تحقق ما أراده النبي (ص).

وأما عن الحذف، فلقد جاء الحذف لغة: الإسقاط، واصطلاحا إسقاط بعض الكلام أو كله لوجود دليل عليه، وقد كان الجرجاني أول من التفت إلى مزايا الحذف، وتنبه إلى أسراره، وأفاض في شرحه وتحدث عن سحره فقال يصفه: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما يكون بيانا إذا لم تُبِنْ" [80] ، "وكل عنصر من عناصر الجملة صالح لأن يحذف إذا قام الدليل عليه، فأمكن تقديره في الكلام" [81]، ويرى ابن جني أن الحذف يندرج ضمن شجاعة العربية مثله مثل الزيادة والتقديم والتأخير والتحريف...

ويذكر أن العرب حذفت الجملة والمفرد، والحرف والحركة وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته" [82]، ويقول الدكتور تمام حسان: "المعروف أن الذكر أحد الأصول ولكن وجود دليل الحذف يؤدي إلى أمن اللبس، فيحذف العنصر النحوي" [83] ، ويعد الحذف نوع من الإيجاز، وباب من أبواب المعاني له مذاقه وسحره الخاص "والحذف من أبرز عوارض التركيب في الكلام.

فلا تكاد تخلو منه جملة من الجمل "والأساس العام لمفهوم الحذف ينطلق من الحاجة الفنية للمعبر في استخدام هذا النسق من الأداء، بحيث يكون العدول عنه إفساداً له" [84]، فقد يقتضي السياق الحذف، فيكون أبلغ وأفصح من ذكر المحذوف، والحذف يكثر استخدامه وتتنوع مظاهره من جملة إلى أخرى في النص الواحد بقدر تقدم النص، واتضاح جوانب الموضوع المدروس بسبب دلالة بعض المذكور على بعض المحذوف إلى حد يصبح معه الحذف عملية آلية" [85]؛ فلا بد من وجود قرائن تدل على ما حذف "وفى أصول النحو أنه "لا حذف إلا بدليل"، وإذا وجد دليل الحذف أمن اللبس مع وجود الحذف"[86].

---

(80) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص146.
(81) تمام حسان : البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، 2000م، ج2 ص109.
(82) ينظر: ابن جني : الخصائص، ص 354 .
(83) تمام حسان : الخلاصة النحوية، ط1، عالم الكتب، 2000، ص 19 .
(84) محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، ط1، 1994، ص 313 .
(85) محمد الهادي الطرابلسى : السابق ص303.
(86) تمام حسان : البيان في روائع القرآن، ج 2 ص104.

"ويستمد الحذف أهميته من حيث إنه لا يورد المنتظر من الألفاظ، ومن ثم يفجر في ذهن المتلقي شحنة فكرية توقظ ذهنه، ويجعله يتخيل ما هو مقصود. وعملية التخيل هذه - التي يقوم بها المتلقي - تؤدى إلى حدوث تفاعل من نوع ما بين المرسل والمتلقي، قائم على الإرسال الناقص من قبل المرسل، وتكملة هذا النقص من جانب المتلقي". [87]

ويحدث بذلك تواصل وتلاحم وانسجام بين المنشئ والمتلقي، ومن صور الحذف التي جاءت في الخطبة حذف حرف النداء: "الأصل في حرف النداء أن يذكر؛ لأنه نائب عن أدعو، وقد يحذف إذا كان المنادى غير مندوب ولا مضمر ولا مستغاث ولاسم جنس ولا مشار إليه. ..، فإذا كان المنادى مندوباً أو مضمراً إلى آخر ما سبق، فلا يحذف منه حرف النداء إلا في شذوذ أو ضرورة" [88]

ويعد حذف حرف النداء أمراً شائعًا، ومن ذلك حذف حرف النداء في قوله: "أيها الناس" والتي تكررت في الخطبة سبع مرات؛ حيث حذفها يفيد الشعور بالقرب المكاني، والتودد، والتلطف بين النبي ρ والمخاطبين، هذا النداء الإنساني المفعم بالرحمة والشفقة على المخاطبين، فجاء النداء في سياق الاحتجاج؛ للاهتمام بما يقوله النبي (ص) ، ولكن بنوع من الرحمة والعطف، واستخدامه لكلمة الناس دون غيرها تحمل أبعادا إنسانية أعمق وأدق لتشمل جميع الناس والبشرية، فهي أدق من استخدامه لكلمة المسلمين أو المؤمنين؛ ليكون خطابه هذا دعوة لجميع الناس في كل أنحاء الأرض غير مرتبطة بمكان أو زمان؛ حيث إنه أرسل للناس جميعا لقوله تبارك وتعالى: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون " [سبأ:28]، ويكون الحذف للوصول إلى نتيجة ضمنية، وهي استمالة قلوبهم إلى ما يلقي عليهم من توصيات وتوجيهات.

ومن صور الحذف أيضا حذف جواب الاستفهام (نعم) في قوله: " اللهم هل بلغت؟... فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت " والتقدير: قالوا: نعم نشهد، وجاء الحذف في سياق تأكيد علمهم بأن الرسول (ص) أدى رسالته على أكمل وجه، فأكد الحذف ذلك.

وجاء كذلك حذف الضمير في أكثر من موضع مثل قوله: "من يهد الله، ومن يضلل " والتقدير: من يهده الله، ومن يضلله، وقوله أيضا: "مما تحقرون" والتقدير: مما تحقرونه، كذلك حذف المفعول به في قوله: " فإن فعلن. .."، والتقدير فإن فعلن الفاحشة، وكل صور الحذف هذه استخدمها الرسول (ص) في سياق تأكيده على ما يقول ومحاولة الإفادة من الإيجاز الناشئ عن الحذف والحرص على خفة الألفاظ والتئام بعضها مع بعض، والحفاظ على توازن العبارات، إضافة إلى دواع أخرى اضطرته للحذف كصيانة لسانه عن المحذوف تحقيرا له كما في حذفه: "فإن فعلن".

---

(87) فتح الله سليمان : السابق ص137.

(88) الألوسي : الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر، شرح محمد بهجة الأثري البغدادي، ط1، دار الآفاق العربية، 1998م، ص49.

الخاتمة:

تناول هذا البحث دراسة خطبة حجة الوداع للنبي (ص) ، عن طريق تطبيق النظرية الحجاجية، التي تهدف إلى رصد جماليات التعابير الحجاجية التي استعملها الرسول (ص) وقد تبين من خلال الدراسة ما يلي:

1- قامت الخطبة على البيان الحجاجي، وكان للرسول (ص) هدف من ذلك وهو دفع المخاطب للتفكير والتأمل.
2- قدرة النبي (ص) على تملك أدوات اللغة وتوظيفها وتوظيفا يدعم حججه.
3- استخدم الرسول (ص) تقنيات حجاجية متعددة، منها آليات لغوية تتمثل في استعمال الروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية، كما استخدم الأفعال الكلامية كالاستفهام والأمر والنهي، قصد الإفهام ولفت انتباه المخاطبين.
4- اعتمد الرسول (ص) على الآليات الحجاجية البلاغية البيانية والبديعية، فاستخدم التشبيه والتكرار والمقابلة.
5- يؤدي العدول التركيبي ما لا يؤديه غيره في العملية الحجاجية في خطبة الوداع تمثل في (التقديم والتأخير- الحذف)؛ فهو يحمل بين طياته دعوة إلى جذب انتباه المتلقي وإقناعه بما يرمي إليه المخاطب، وهذا هو الهدف من الحجاج.
6- قلة الأبحاث الموجهة لخطبة الوداع.
7- تحتاج نظرية الحجاج إلى مزيد من الاهتمام وتوجيه الأنظار إليها، وتطبيقها على نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية ونصوص الشعر.
وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

مصادر البحث ومراجعه:

1. إستراتيجيات الحجاج في المناظرة السياسية: أنور الجمعاوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013م.
2. إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: عبد الهادي ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد، 2004.
3. أسرار البلاغة:عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني (ت: 471 هـ)، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ، 1422هـ
4. أصول الحوار وتجديد علم الكلام: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2007.
5. أهم نظريات الحجاج فى التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم: حمادى صعود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية – تونس، كلية الآداب – منوبة.
6. البرهان في وجوه البيان: ابن وهب، تحقيق حفني شرف، مكتبة الشباب.
7. البلاغة والاتصال: جميل عبد المجيد، دار غريب، القاهرة، 2000م.
8. البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م.
9. تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبدالرزّاق الحسيني،أبوالفيض،الملقّب بمرتضى،الزَّبيدي (ت: 1205هـ)، دارالهداية.
10. تاريخ الطبري: أبو محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة، ط2، د.ت.
11. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي،الدار التونسية للنشر – تونس، 1984م.
12. الحجاج في البلاغة المعاصرة: محمد سالم الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2008م.
13. الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011م.
14. الحجاج في الشعر العربي القديم: سامية الدريدي، الناشر عالم الكتب الحديث ط الأولى.
15. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: عبد الله صولة، دار الفارابي، تونس، ط2، 2007م.

16. الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة: حافظ إسماعيل علوي، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010م.
17. حجة الوداع: الإمام ابن حزم الأندلسي، تحقيق: أبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر، الرياض، ط1، 1998م.
18. السيرة النبوية: ابن هشام، تعليق: أ.د. عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1990م.
19. شرح تنقيح الفصول: القرافي (ت: 684هـ)، تحقيق:طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، 1973 م.
20. صحيح البخاري: دار ابن كثير، بيروت، ط1، 2002م.
21. صحيح مسلم: دار الفكر، بيروت، ط1، 2003م
22. الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو 395هـ)، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، الطبعة: الأولى، 1412هـ.
23. في اللسانيات التداولية في محاولة لتأصيله في الدرس العربي القديم: خليفة بوجادي، بيت الحكمة، الجزائر، 2008م.
24. كتاب التعريفات: الشريف الجرجاني (ت: 816هـ)، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان،1983م.
25. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: التهانوي (ت: بعد 1158هـ) تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى - 1996م.
26. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: 1094هـ)، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت.الطبعة الثانية 1419 هـ
27. لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: 711هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.
28. اللسان والميزان: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998
29. اللغة والحجاج: أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، الطبعة الأولى، 2006م.
30. لغة المحاجة و اللغة الواصفة: كريستيان بلانتان، ترجمة: نصيرة الغماري، http://aslimnet.free.fr/ress/n_ghoumari/ghou1.htm
31. المعتمد في أصول الفقه: محمد بن علي الطيب أبو الحسين البَصْري المعتزلي (ت: 436هـ)، تحقيق:خليل الميس، دار الكتب العلمية – بيروت.
32. معجم تحليل الخطاب: باتريك شارودو ودومينيك منغو، ترجمة: عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008م.
33. المعجم الفلسفي: إبراهيم مدكور، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983.
34. المعجم الفلسفي: مراد وهبة، دار الثقافة الجديدة، مصر، 1979م.
35. المغرب في ترتيب المعرب، أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز، تحقيق: محمود فاخوري وعبدالحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد حلب، الطبعة الأولى سنة1399هـ.
36. مفاتيح العلوم: محمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبدالله، الكاتب البلخي الخوارزمي (ت: 387هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي.
37. مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي ,ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور, دار الكتب العلمية، بيروت- ط الثانية، 1407 هـ - 1987 م.
38. مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م.
39. النص الحجاجي العربي: دراسة في وسائل الإقناع، محمد العبد، مجلة فصول.

40. النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية: محمد محمد طروس، دار الناشر للثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط، 2005.
41. نهاية الأرب في فنون الأدب: عبدالوهاب النويري، تحقيق: د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م.